المظهر الثقافي ودوره في تشكل الخطاب النقدي العربي القديم
(بين العصر الجاهلي وصدر الإسلام)

الطالب الباحث: بوشقور محمد
مخبر الخطاب الحجاجي
جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

الأستاذ الدكتور: داود احمد
مخبر الخطاب الحجاجي
جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

تحاول الدراسة تسليط الضوء على قالب الخطاب النقدي في فترتين زمنيتين سالفتين في تاريخ النقد العربي؛ بين العصر الجاهلي وصدر الإسلام، حيث تطمح إلى البحث في المفارقة في شكل ومضمون الخطاب النقدي الجاهلي وبين نظيره الذي طرأت عليه محدثات بفعل الدِّين الذي كان حدثا غير مسبوق في شبه الجزيرة العربية، حيث يعتبر مجيء الإسلام وانتشاره في تلك البيئة سياقا جديدا ألقى بظلاله عليها برز أثره على جوانب حياة العرب في ذلك العصر، والدراسة تحاول إبراز أثر السياق الجديد على بنية الخطاب النقدي في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب؛ النقد؛ الجاهلية؛ الإسلام؛ العرب؛ السياق؛ الانطباع.

Cultural Appearance and its Role in Shaping of the old Arab critical discourse

(Between the pre-Islamic era and Islam)

Abstract: The study attempts to shed light on the critical discourse template in two previous temporal periods in the history of Arab criticism, between the pre-Islamic era and Islam, where it aspires to look at the paradox in the form and content of the pre-Islamic critical discourse and its counterpart, which came up with innovations by the religion, an unprecedented event in the Arabian Peninsula. The advent of Islam and its spread in that environment seems to be a new context casting a shadow over the impact on the emergence of the aspects of the lives of Arabs in that era. The current study attempts to highlight the impact of the new context on the structure of critical discourse in that period.

keywords: Discourse, criticism, ignorance/nescience, Islam, Arabs, context, impression.

ظل الخطاب النقدي في النقد العربي القديم حقبا عديدة يراوح مكانه، من حيث الصيغ ذات الطابع الفطري الانطباعي في حكمه على النصوص الأدبية عامة والشعرية على وجه

تاريخ تسليم البحث: 11 سبتمبر 2017.
تاريخ قبول البحث: 02 أفريل 2018.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أخص، واستمر في كل مرة يعلن تمسكه بمختلف الآثار السياقية التي وُسم بها مجتمعه عائدا إليها إن حضر إنشادُ شاعر لقصيدة أو حتى بيت يتيم، فيحاول المتلقي أو الناقد كشف أثر ذلك الكلام في نفسيته مرفقا معه-كشف الأثر- حكما على النص المسموع بالجودة والقبول، أو الرفض والاستهجان، وهذا الذي دعا الكثير من النقاد في العصور المتأخرة إلى تهوين مستوى الأحكام النقدية التي واجه بها نقاد العصر الأدبي العربي الأول الأدباءَ والشعراءَ؛ حيث اعتبروه نقدا يعاني من سلطة الذات وقيود الضوابط الاجتماعية التي تفرض على الشاعر مراعاتها وعدم مخالفة ما تآلفت عليه العقلية العربية في الجزيرة العربية آنذاك، "فكل شيء في حياة العربي في الجاهلية رجع إلى الصحراء، فنظام معيشته وطريقة تفكيره، ونوع شعوره، وما اعتاد من كريم العادات وذميم الخصال، وما وهِم من قوى تنصر وتخذل، وتسعد وتشقي، كل أولئك من أثر الحياة البادية التي يحياها"[(1)]، هذا مسلم به إذ للبيئة سلطان على المبدع، لكن تبقى نسبة التحكم متفاوتة بين أديب وآخر، حيث يدقق هذا في تقفي أثر السلف أصحاب كلام العرب ويجرم الخروج عن معاني العرب المألوفة، بل حتى محاولة الميل شيئا قليلا، بينما يغض الآخر طرفه إذا ما رأى انزياحا مظنة أن فيه طربا وأثرا سُرّت له ذات المتلقي الناقد البصير بالأدب على استحياء حين يجيز ذلك .

وعند مطلع البعثة المحمدية على شبه الجزيرة العربية خاصة، تغيرت نظرة العربي للكون وللحياة ومجالاتها، وانفلات ذهنيته عن مآسر تأليه حجارة صماء لا تضر ولا تنفع بعيدة كل البعد عن الحقيقة والصواب، إلى نظرة تدعو إلى البحث عن الحقيقة وحرب الجهل وذمّ دعوات الظلام والتخلف وإيقاظ همم طلب العلم استجابة لأمر القرآن الذي بدأ بـ "**اقرأ**"؛ ذلك النظام الجديد الذي أحدث في الجزيرة العربية هزة قوية في كيانها الاجتماعي وفي نمطها في التفكير أمام ما يدور حولها من متغيرات.

ويعدّ الأدب عنصرا هاما عند الأمم حيث يعكس الطابع الحياتي العام لكل أمة، وهو الصورة طبق الأصل لما دار ويدور في المجتمعات، حيث يعود إليه العلماء الباحثون والمؤرخون والنفسانيون في دراساتهم حول تلك المجتمعات، وعند العرب لعب الأدب دورا كبيرا في إيصال ما جرى في البيئة الجاهلية قبل الإسلام، فهو ديوان العرب -كما يرى أبو عمرو بن العلاء-، وكذلك هو في أوائل أيام البعثة المحمدية وإن قال بعض الدارسين بفتوره وبروده، وإن كانت نظرتهم تعني الشعر بشكل أخص.

فلذلك حرص النبيﷺ، والخلفاء الراشدون على مراقبة الأدباء في عصره من خلال تسليط ضوء وعين النقد على أعمالهم وإنتاجاتهم الأدبية والشعرية خاصة، لأنهم كانوا يعلمون يقينا ما للشعر في مجتمعهم العربي من دور وأثر في استمالة عقول الناس، ونفوسهم، "وقيادته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لها؛ ولولا معرفتهم بعمق هذا التأثير ما كان الديّن والخلق مقياسين للشعر، يختصم حولهما العلماء ونقاد الأدب"[2] ومن ثمّ أصبح حريٌّ به استغلال هذا الجانب في خدمة دينه وتبليغ رسالته. لكن: إن كان النبيﷺ قد تفطن بداية لدور الأدب في المساهمة في نشر الرسالة السماوية؛ **فكيف كان استغلالهﷺ لهذا الدور؟ وهل تغيرت الذهنية النقدية العربية على إثر ذلك الاهتمام؟ وإلى أيّ مدى كانت مساهمته في إحداث مفارقة -إن وجدت- بين شكل ومضمون الخطاب النقدي القديم والجديد -الجاهلي وصدر الإسلام- ؟.**

تذكر كتب التأريخ للنقد والأدب العربي العديد من الصور التي ترسم سمة النقد السائد في الفترة الجاهلية والذي رافق دوما ورود نص الإبداع عامة والشعر خاصة، ومن ذلك مثلا، ما أورده "المرزباني" في **موشحه** أنه «تحاكم الزبرقان ابن بدر وعمرو بن الأهتم وعَبدةُ بن الطبيب والمخبَّل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر أيُّهم أشعر، فقال للزبرقان: « أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أُنضج فأُكل ولا ترك نيّئاً فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حِبر، يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصَّر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادةٍ أحكم خَرْزُها، فليس تقطر ولا تمطر»[3]. نلاحظ أن ربيعة بن حذار لجأ في حكمه على شعر أولئك الشعراء - من خلال كلماته التي أجاد تأليفها- إلى استخدام تشبيهات حاول فيها تقريب الصورة التي يظهر فيها مستوى إبداع أولئك الشعراء في ذهنه، ولذلك فهي أحكام "غامضة، لا تخلف وراءها شيئا دقيقا"[4] فالأول مثَّل شعره بلحم غير ناضج، والآخر شعره كالثياب المحبرة الجميلة التي تسحر العين وتعجب بها، والثالث عدّ شعره دون مستوى شعر نظرائه وتعدّى شعر غيرهم، وأما عبدة فشبه شعره كمزادة أو قربة أحكم ربطها، أي: عنى أنّ شعره كان محكما راقيا على شعر نظرائه الأُوَل، دون أن يكلف نفسه تعليل موقفه هذا، وتفسير سبب تقديم شاعر وتأخير آخر، وإظهار المعيار الذي قيّمت به الأشعار، "ولعلّ هذا النموذج من أرقى الأمثلة وأشدها دلالة على طبيعة النقد الأدبي، قبل أن يصبح لهذا النقد كيان واضح، فهو نموذج يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون لجوء للتعليل، وتصوير ما يجول في النفس بصورة أقرب إلى الشعر نفسه"[5]. إذ هي أحكام عامة تعبر عن مدى الأثر الشعري في نفسية المتلقي وتتباين تلك الأحكام بحسب ثقافة ذلك المتلقي وزاده المعرفي.

وتتعدد المظاهر النقدية التي نقلتها كتب التراث الأدبي العربي القديم، لكنها لا تكاد تمايز من حيث شكلها واعتمادها على السليقة والارتجال في نقد الأدب، وسطحية نظرتها التي تقع على القول دون الغوص داخل معناه، وذلك راجع لطبيعة العربي الذي تكيف مع طبيعة الصحراء ذات المناخ القار على ارتفاع درجة الحرارة، وجغرافيتها الشاسعة المغطاة بالرمال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وخلوها من البناء والعمران، فلا تعقيد فيها ولا وُعورة في تضاريسها، يتنقل العربي البدوي عبرها فيصف حياته وما فيها من حلٍّ وترحال وما وقعت عليه عينه من مناظر الطبيعة وما عليها من كائن حي أو جماد، هذا الوصف حاول العربي أن يبدع فيه فيقدمه بأحسن قالب أدبي يبهر به من يتلقى كلامه فينقل له الصورة وكأنه يراها ويعيشها؛ فكان الشعر آخر ما توصل إليه من الإبداع، إذ تزاحم العرب على قرضه حتى اشتهرت عظمة الشعر العربي.

ومما نحصل عليه من الوقائع النقدية التي جرت في العصر الجاهلي، ما كان يفعله النابغة الذبياني في سوق عكاظ، إذ تضرب له خيمة على هضبة في السوق فينصب نفسه كمحكم للأشعار حيث تعرض أمامه، فمن ذلك أنّه أنشده الأعشى شعرا فأجازه وأعجب به، ولما قدمت عليه الخنساء فأنشدته:

قذى بعينك أم بالعين عوارُ .... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدّار

إلى أن وصلت بقولها:

وإنّ صخرا لتأتم الهداة به ...كأنّه علم في رأسه نارُ

فقال لولا أنّ أبا بصير أنشدني قبلك لقلت: إنّك أشعر الناس[6]

وكان حسان حاضرا فقال: أنا والله أشعر منكَ ومنها . قال النابغة: حيث تقول ما ذا؟

قال حسان:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضحى... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وَلدْنا بني العنقاء وابنَيْ محرّقٍ... فأكرم بنا خالاَ وأكرم بنا ابنما

فقال: إنّك لشاعر لولا أنّك قلّلت عدد جفانك وفخرت بمن ولدتّ ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى: فقال له: إنّك قلت (الجفنات) فقلّلت العدد ولو قلت (الجفان) لكان أكثر وقلت (يلمعن في الضحى) ولو قلت (يبرقن في الدجى) لكان أبلغ في المديح لأنّ الضيف بالليل أكثر طروقا . وقلت (يقطرن من نجدة دما) فدللت على قلّة القتل ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم وفخرتَ بمن ولدتَ ولم تفخر بمن ولدكَ، على عادة العرب . فقام حسان منكسراً. "وفي تعليقات النابغة وملاحظاته ما يدّل على أن شعراء الجاهلية كان يراجع بعضهم بعضا، وأنهم يبدون في ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء في المعاني والألفاظ"[7].

الناظر في تلك الأحكام التي كان يقابل بها نقاد العرب في العصر الجاهلي شعراءَهم أو الشعر حينما يسمعونه، يجد أنهم لا يقولونها اعتباطا من غير روية وفكر، فهؤلاء كانوا أهل علم ودراية بتلك الصنعة العربية ذائعة الصيت فأصدروا "هذه الأحكام متسمة بذوقهم الفطري المتأثر بتقاليد البيئة وعاداتها، فالشعب في أي عصر يستسيغ ما تعود على سماعه ويستأنس بما يراه ويراه دائما في حياته الاجتماعية الخاصة والعامة، والعادة كما هو معروف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

طبيعة ثانية والخروج عليها يعدّ نبوا في الذوق وبعدا عنه"[8]، ودام الحال على ذلك إلى نحو "قرن أو يزيد قليلا قبل الإسلام، فجدت في الشعر عوامل أسرعت به إلى الإتقان والنضوج، فقد تغلبت لهجة قريش على لهجات العرب الأخرى، وأصبحت لغة الشعراء من جميع القبائل؛ واهتدى العرب إلى تفاعيل وأعاريض كثيرة، نظموا منها أشعارهم"[9]، فالشعر العربي الذي وجد قبل البعثة المحمدية يعتبر قمة التطور في الأدب الجاهلي، إذ لا نستطيع التكهن كيف كان قبل القرن والنصف من عمر الشعر الذي وصلنا . " إن عصر ما قبل الإسلام يعد عصر الفصاحة والبلاغة، منه انحدرت الأصول التي اعتمدها العلماء فيما بعد مقاييس، قاسوا بها الكلام العربي والبلاغة، كما اشتهروا بالبعد عن فضول الكلام والحشو، والإسهاب، وكل ما يزري من شأنهم، وعمدوا إلى تقديم المعنى بأقصر طريق، وأقل عبارة، وكانوا يتباهون بتلك الفصاحة، ويتفاخرون بها"[10]، فلا يمكن الجزم أن الناقد في الجاهلية كان يندفع دوما تبعا لما يحدثه الأثر الشعري في نفسه ويعطي أحكاما تكاد تكون خالية من التدبر والفكر، أقرب إلى الرأي العاطفي منها إلى العقل والعلم، ويقوي مثل هذا القول الجاحظ بقوله: « لأن العرب أشد فخرا ببيانها، وطول ألسنتها، وتصريف كلامها، وشدّة اقتدارها، وعلى حسب ذلك كانت زرايتها على كل من قصّر عن ذلك التمام، ونقص من ذلك الكمال»، [11]ومنه لا يمكن اعتبار النقد الجاهلي أنه لم تكن فيه الروية والتفكير واستعمال العقل والموضوعية بتاتا؛ فرقي الشعر الجاهلي وحسن ضبط لغته ودرجة فصاحته لا تدل إلا على مستوى في الذكاء والتفكير فلا يمكن اتهام النقد الجاهلي اتكالا على ما وُجد في أمّهات كتب الأدب والنقد من أخبار عن مناقشات نقدية حصلت في العصر الجاهلي وهي قليلة جداً مقارنة بالشعر الجاهلي من حيث الكم، وكذلك هي ساذجة إذا ما قوبلت بمستواه الراقي في اللغة والدلالة والبلاغة والنظم .

إن السمة التي وسم بها النقد العربي الجاهلي على أنه نقد ساذج يحتكم إلى العرف والبيئة، لا يقع على النقد الجاهلي فقط، وإنّما إذا تفحصنا وقائع النقد الأدبي قبله لدى نقاد العالم الذين سبقوا العرب، نجد ما يشبهه في البعد عن الموضوعية والتحليل، فاليونان وعلى اعتبار نضج المستوى النقدي عندهم، "فقد كان أفلاطون -في جمهوريته المثالية- مهتما بالتأثير الخُلقي الذي يمكن أن يحدثه الشاعر، كما أولى هوراس نفعية الشعر وجماله شأنا كبيرا "[12]، ويرى صقر خفاجة في كتابه «النقد الأدبي عند اليونان» أنه كان "« الشعراء اليونان بعد أن انتهى عصر الملاحم وازدهر الشعر الغنائي في القرن السادس قبل الميلاد يصدرون بعض الأحكام النقدية التي تعبر عن رأي ذاتي أبعد ما يكون عن القاعدة العلمية»، ومعنى هذا أن الشعراء شاركوا في حركة النقد منذ القديم، فلم لا ينطبق ذلك على العرب في الجاهلية وهم أهل ذوق رفيع وأصحاب شعر بديع؟"[13]. وحسب رأي أحمد مطلوب في كتابه "اتجاهات النقد في القرن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرابع". أن ما يدل أن العرب مارسوا النقد وكان لهم الكثير من الأحكام النقدية في العصر الجاهلي بالاعتماد على فرضيتين:

الأولى: عقلية حيث لا يمكن إنكار أن الشعر والخطابة وصلا إلى مستوى رفيع في تلك الفترة، بلا عقل مدبر لكل ذلك "ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والخطباء وساروا عليها فيما نظموا وقالوا، ومهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء، فإن العقل لينكر أن يكون ما كان من غير ثقافة ودربة وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبيل القول"[(14)]. إذن فلا سبيل إلى القول أن نقد الخطاب الأدبي في العصر الجاهلي لم يرق إلى مستوى من العلم والتريث في إطلاق الأحكام، مع أننا لا نرفض عدم وجود أثر للتقعيد الشعري أو الأدبي عامة في تلك البيئة، لكن قد لا نكون مغالين إذا ما رأينا أنه كان ما يشبه تلك القواعد أو الطرائق متعارف عليها من قبل أهل الصنعة من بلغاء العرب وأدبائهم، يحاول الشاعر النسج على منوالها ووفق ما تمليه عليه تلك القواعد، وكذلك الناقد هو مطالب بحراستها ومراعاتها إذا ما عُرض عليه العمل الأدبي، ولذلك ربما ظهر للبعض أن مثل هذه العملية نوع من الجبر الممارس على المبدع من طرف المتلقي الناقد ومحاولة تسقيف حرية الإبداع لدى الأديب في ذلك العصر، لكن من جانب آخر - ربما يكن منصفا-؛ يجب تذكر أن العرب كانت لا تعرف التدوين بل ربما لا تعرف الكتابة والقراءة، وكانت تتداول إنتاجاتها الأدبية مساجلة ومشافهة ورواية من جيل إلى جيل، فلما لا يمكن الظن أن القواعد النقدية ورثت كذلك وتداولت بينهم ولو لم نعثر على شيء يؤيد ذلك؛ فهذا لا ينفي عدم وجودها خصوصا إذا ما تمعنا بعمق في مستوى الشعر؛ فلا يمكننا غير القول أن الأديب الجاهلي كان لا يقول الشعر لعوام الناس وتغنيا به عابرا فقط؛ بل كان يخاطب به عقلا راقيا عالما بصيرا بالصنعة عارفا بخباياها؛ فهو يحذر دوما التقصير في نظم الكلام مخافة الرقابة النقدية الراقية .

الثانية: نقلية ما نقل عنهم إلى عصر التدوين مشافهة ورواية ما أثر عنهم، ومن ذلك ما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم، وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم[(15)]، ويؤيد مثل ذلك ما أورده الجاحظ في البيان أنه: «لما دخل ضمرة بن ضمرة، على النعمان بن المنذر، زرى عليه، للذي رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال النعمان: (تسمع بالمعيدي لا أن تراه)، فقال: أبيت اللّعن. إنّ الرجال لا تُكال بالقفزان، ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك يستقى بها، وإنما المرء بأصغريه: بقلبه وبلسانه، إن صال صال بجِنانٍ، وإن قال ببيان"[(16)]، "وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعرا شريفا سيدا، وكان يحكم وينفر بالأسجاع"[(17)].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا أردنا تقييم الحركة النقدية التي سادت البيئة العربية في العصر السابق لفترة البعثة المحمدية الشريفة، فيجب معرفة "أن العصر الجاهلي شهد نضج الشعر القائم على قوة الطبع البدوي، ولم يكن ثمة سبيل إلى نضج النقد القائم على قوة العقل الحضري، غير أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك نقد أصلا، فالنقد - في بذوره الأولى التي هي التأثر بالشعر إعجابا أو إعراضا- وُجد منذ وُجد الشعر ضرورة، لأن الثناء على قصيدة إنما يعني الإحساس بها من خلال تقويم معين، على أن المشكلة في الجاهلية أنّ هذا الإحساس كان غائما خفيا لم يبلغ أن يتحول مبدءًا عقليا، لأن الإحساس مرحلة تتقدم التعليل، ولكنها لا تُغني عن التعليل، والنقد أمران(...): إحساس وتعليل، أو ذوق وعقل، والنقد الذوقي كان معروفا في أطواره الأولى في الجاهلية على نحوٍ يُلائم الحياة البدوية، أما التعليل فكان يعرض أحيانا على استحياء، وهكذا نخلص إلى أن النقد الجاهلي كان غنائيا مثلما كان الشعر الجاهلي غنائياً"[18]، هذا رأي لا ينفي وجود نقد مع وجود عمل أدبي، ولكن ما ينفيه هو وجود نقد مؤسس يقوم بالتعرض للإنتاج الأدبي، ويُقوّم نصوصه ويُقيّمها ويحللها ثم يعلل مختلف الأحكام والآراء حول تلك النصوص باستخدام آلات ووفق إجراءات معينة، وهذا لم يكن طبعا، إذ "نشأ النقد العربي في مرحلته الأولى فطريا أحكاما عامة يطلقها الشعراء والكتاب والأدباء بعضهم على بعض سريعة لا تعليل فيها ولا تحليل، روي بعضها في الأسواق الأدبية"[19]، وفي ذلك العصر اتجه النقد الأدبي اتجاهين، أو ظهر بمظهرين[20]، أحدهما قائم على **الذاتية والتأثر**، تنوعت مجالاته ومظاهره من خلال تنوع الأحكام التي وردت في كتب النقد العربي القديم، على الشعر والشعراء، من جانب نقاد لهم خبرة ومراس للشعر مثل "**النابغة**" وما أثر عنه من تصدّ للشعر والحُكم على أعمال الشعراء في سوق عكاظ -كما ذكر سابقا في هذا البحث-، أو طرفة بن العبد وأمثالهما وهؤلاء هم شعراء، ولقد "وُلد النقد الأدبي مع مولد الشعر، ونشأ معه، وهذا أمر طبيعي، فإن الشاعر ناقد بطبعه، يفكر ويقدر ويختار، ولهذا كان أقدر من غيره على فهم الصنعة الشعرية، وعلى إدراك أسرار القبح أو الجمال" [21].

أو يكون الناقد من عامة المستمعين الذين كانوا يحكمون على الشعر من جهة أثر وقع كلماته في نفوسهم، وقد تباينت صور هذا الاتجاه بين: "النقد اللغوي، والمعنوي ونقد العروض، وتقديم الشعراء"، **واتجاه ثان في النقد الجاهلي** كان مبعثه الروية والأناة، تجلت صوره في **التثقيف والتنقيح** مثل ما كان يعمد إليه أصحاب الحوليات وعبيد الشعر كفعل زهير بن أبي سلمى، وصور أخرى تمثلت في **الرواية والتلمذة، والاختيار** .

وقد ميز نقد تلك الفترة: الذوق الفطري، الارتجال في الأحكام، الجزئية، العموم أي: (الحكم على نص شعري بالجودة أو الرداءة من خلال الموقف من بيت واحد فيه)، الإيجاز[22] أو

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التعبير عن أثر النص الشعري بجملة قصيرة بل بكلمة كفعل طرفة لما سمع المتلمس بن علس يصف جملا، فقال طرفة «استنوق الجمل» لوصف المتلمس الجمل بصفة تختص بها الناقة عند العرب.

2. دور الإسلام في تجديد الخطاب النقدي الموجه صوب الأدباء

الإسلام وبحكم ما يحمل من أهداف سامية جاء لنشرها وحمل الناس على إتباعها والاهتداء إلى سبيلها، حيث رسم للناس نظاما مشحونا بعديد الأوامر والنواهي كقوانين شرعية مصدرها الله -سبحانه وتعالى-، تحفظ الإنسان أن يضل في الحياة الدنيا أو يشقى في أخراه، هذا في عامة جوانب الحياة، أما بالنسبة للأدب والأدباء وكون هؤلاء بشرا فقد عناهم الخطاب الموجه من الدّين الجديد بالتزام تعاليمه فيما يقولون وأشار في كثير من المواضع إلى خطورة الكلمة على الفرد والمجتمعات، وكذلك دورها الإيجابي في بناء مجتمع إسلامي قوي الترابط والتعاون، من هنا وجب على الشعراء التقيد بما يوافق الدين الجديد والبعد عمّا يعارض ذلك، وكذلك من عني بالتعرض للنصوص الأدبية من النقاد أصبح حري به أن يدعوَ الشعراء إلى هجر ما ورثوه وطبعوا عليه من شعر الجاهلية خاصة تلك التي تدعو إلى الوثنية ونشر الفتن والهجاء والتنابز بين المسلمين ودعاوى التفرقة وقطع الأرحام....وغيرها، وإنّ ذلك السلوك الذي تبناه النقاد في العصر الإسلامي الأول تجاه الشعر والشعراء، أدى إلى حدوث مغايرة في بنية الخطاب النقدي وفي صيغه، إذ لم يبق على صيغه المألوفة بل دخلها بعض التغيير أو ربما هجرها تماما استجابة لمقتضى العصر والمتغيرات المستحدثة، وتكيفا مع ما تمليه العقلية الاجتماعية الآنية، فحقا "لقد أحدث الإسلام قيما جديدة غيرت من مقاييس النقد وعدلت من مساره"[23]. لكن يجب الإشارة إلى أن هذا التغير لم يكن قد بدا واضحا بذلك الشكل الذي يمكن تصوره على أنه نقد علمي يعلل أو يدقق فيما يعرض له من نصوص ويوضح سبب القبول أو الرفض بعيدا عن سلطة الأثر الشعري في النفس، أو عدم مراعاة العرف الاجتماعي ونفرة الخضوع لها؛ بل لم يكن طبعا.

1.2. القرآن الكريم وأثره على الخطاب النقدي

لم يكن للعرب قول أرفع ولا أبلغ ولم يكن يلهمهم كالشعر كلام، حيث بارزوا به غيرهم من الأمم في الجزيرة العربية أو خارجها من بلاد الفرس والشام والروم، واعتبرت لغة قريش بإجماع العرب فيما يحيط بمكة من أمصار، أفضل لغة حتى صارت عربها حَكَماً على لهجات عربية أخرى .

ثم بمجيء الإسلام ونزول الوحي وظهور النص القرآني كقالب خطابي جديد ينافس الشعر بما يحمله -القرآن الكريم- من كلام لم يعهده العرب أصحاب الفصاحة والبيان وهم من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عُدّوا قبل هاته الفترة بأنهم لا يقارعون في البيان وتفصيل القول العربي المبين، ها هم اليوم يقفون عاجزين أمام هذا النص الجديد رغم أنه جاء بلسان عربي لا يستعجمه العرب؛ ولكن ما أبهرهم، هو إعجازية لغته بما لها من الكمال والعظمة والجمال فهي راقية لا تضاهيها لغة بشر أو لسان مخلوق، توحي بفردانيتها كفردانية كتابها حاملة معها دليلا على وحدانية صاحب الكلام -الله‎ﷻ- حيث وقع العرب حيارى أمام هذا المحدث ولم يعرفوا كيف يصفونه أو إلى أيِّ من القوالب الأدبية ينسبونه فالقرآن "في بلاغته التي نعرفها، إنما كان يخاطب قوما يفهمونه ويتذوقونه، وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع لأي كان، ولا يمكن أن يقع اتفاقا بلا استعداد ولا بدّ من وجود ثقافة أدبية عند الجماهير التي سمعته، والنفوس التي تأثرت بأسلوبه فآمنت به"[24]، وعلى رغم هذا وقع هؤلاء في حيرة أمام النص القرآني ليس لعجزهم في تصريف القول؛ فهم ما هم مثلما علمنا عنهم في الفصاحة والبلاغة والبيان "وهذا يدحض التقاليد التي جرى عليها بعض الباحثين، في كثير من أحكامهم على الجاهليين واتهامهم بأنهم أميون يغلب عليهم طابع البداوة والسذاجة"[25]فغلبة القرآن لقريش ليس لهون مستوى النضج البياني واللغوي عندهم؛ بل هو لعظيم درجة كتاب الله المنزل، يقول الله تعالى: ﴿**وإنه لتنزيل ربّ العالمين نزل به الروح الأمينُ على قلبك لتكون من المنذرين بلسانٍ عربيٍّ مبين**﴾[26].

والمتتبع للحياة العامة لدى العرب يجد أنها أخذت في التحول منذ مجيء القرآن الكريم ابتداءً، وكان لها كالغيث النافع بعد قحط ضار جثا على ظهرها قرونا عديدة، فأنكره المشركون من العرب بداية ليس لعجز القرآن في تأدية الواجب التعبيري لإحداث الأثر في نفوسهم، ولكن كان نكرانهم جحودا وإعراضاً، وأقبل الذين آمنوا بمحمدﷺ ودعوته حينما قلّبوها في أكثر من جانب وتفحصوها مرارا فلم يجدوا ما يدخل الشك أنه من صنع البشر أو أيّ مخلوق، إذ لا يستطاع على إتيان مثله كتابة أو إخبارا عن الغيب سواء الماضية منها أو المستقبلية، فكان أن اختاروا إتباعه والتسليم له بلا جدل، وتبعا لما اختاره هؤلاء الأخيرون ولكونهم كان منهم الشعراء أو النقاد كان ما تولد عن إسلامهم -سواء في النقد أو الشعر- شعرا إسلاميا يتبعه نقد إسلامي جديد؛ من حيث لغته ومضمونه وشكله خاصة النقد إذ استمر الشعر على قوالبه الموروثة عن الأدب الجاهلي فلم يخرج عنها.

فمن هذا كله نستطيع الآن القول أن القرآن الكريم "أثار منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند العرب، ودعاهم إلى الالتفات إليه، لما جاء به من جديد في أساليب التعبير، والبيان، وعلقت أفئدتهم وأسماعهم بما جمع من كلام رائع، فلم يسعهم إزاء ذلك إلا التسليم بروعة أثره في النفوس، وفي العقول، واعترف بلغاؤهم وأولو الفطن منهم بذلك الأثر، وتحيروا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيه، فمن قائل إنه سحر، ومن قائل إنه شعر، ومن قائل إنه أساطير الأولين، أو سجع الكهّان"[27]، كل هذا لأثر القرآن على العرب.

ويعتبر الدِّين الجديد ونزول الوحي أهم ما شدّ انتباه العرب في بداياته، ويعدّ "القرآن الكريم باعث مهمّ من بواعث نشوء النقد الأدبي عند العرب، فقد حظيت النصوص القرآنية، بعناية كبيرة في وقت مبكر، وكذلك الأحاديث النبوية"[28]، ووقف العرب عاجزين أمام القرآن حيث بهرهم أسلوبه الذي يختلف عن أسلوب البشر في نظم القول، ولم يعتادوا لمثله صورة أو أثر، "ولم يكن القرآن رؤية جديدة للإنسان وحسب، وإنّما كان كتابة جديدة، وكما أنه يمثل قطيعة مع الجاهلية، على مستوى المعرفة، فإنه يمثل أيضا قطيعة معها، على مستوى **الشكل التعبيري**، هكذا كان النص القرآني تحولا جذريا وشاملا: به وفيه، تأسست النقلة من الشفوية إلى الكتابة، من ثقافة البديهة والارتجال، إلى ثقافة الروية والتأمل، ومن النظرة التي لا تلامس الوجود إلا في ظاهره الوثني، إلى النظرة التي تلامسه في عمقه الميتافيزيقي، وفي شموله نشأة ومصيرا ومعاداً"[29]، وقد تأثر الشعر "بالمثالية الروحية الجديدة وخاصة حين كان شعراء المدينة يناضلون شعراء مكة قبل فتحها ويترامون الهجاء على نحو ما هو معروف عن حسانﷺ فقد كان يستشعر الدِّين الجديد ويمدح الرّسول الكريمﷺ ودعوتَه"[30]، فهذا عامل مهم في تشكل الذوق الفني الجديد حيث يساهم في تغييره أو ربما استبداله وفق متغيرات الدوافع الباعثة للشعر، وعليه يمكن القول أن القرآن الكريم"حوّل مفاهيم العرب الفنية تحولا شاملا فاتجه بأذواقهم وجهة جديدة تتفق مع ما أحدثته من تغيير من جميع الجوانب وبصورة خاصة الجانب الأدبي(....) لقد ارتقى الأدب درجات في هدفه وأساليبه واتسعت آفاقه، وتعددت مراميه وتجددت معاني القول فيه"[31]كل ذلك من أثر الهزة التي أحدثها الدين الجديد وما حمل القرآن من نصوص راقية التعبير مسبكة النظم.

2.2. الخطاب النبوي تجاه الشعراء وأثره على النقد

يعدّ زمن بداية الوحي إلى نهاية خلافة علي بن أبي طالبﷺ، محطة ثانية للنقد العربي القديم في هذا العصر، ممثلة في الجيل الإسلامي الأول، الذي يختلف عن الجيلين التاليين بعده، في عهد بني أمية إلى صدر العصر العباسي، "فقد نشأ الجيل الأول في الجاهلية، ولذلك كان اتصاله بها أوضح وأعمق من اتصال الجيلين [الآخرين]، بينما يتفوق عليه هذان الجيلان –الأموي والعباسي- في الاتصال بالحضارات الأجنبية"[32]خاصة اليونانية والفارسية.

وقد كان **للرسول ﷺ**، مواقف من الشعر في هاته الفترة، حيث وجّه أقوال بعض الشعراء، واستحسن جمال الألفاظ وسلوك الإيجاز وذمَّ بعض ما في الشعر، كالغلو والتكلف والكذب، فقد أثر عنهﷺ حكمه على بعض الشعراء بأحكام تنطلق من إيمانه وصدقه وعدله

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وخلقه الرفيع ﷺ، حينما حكم بشاعرية امرئ القيس، وإن كان- امرئ القيس - مات على عهره ومعصيته، ثم مع أصحاب النبيﷺ -رضوان الله عليهم- من بعده، الذين كان نقدهم قائما على توجيه الشعراء إلى الأخلاق الإسلامية الفاضلة، حيث "رسمَ الإسلام للناس مناهج السلوك التي يسلكها الإنسان في مجتمعه، والفضائل التي يتحلى بها، ومن جرى لسانه بالتبشير بالدّين الجديد، أو إذاعة تعاليمه، فهو المحكوم على قوله بالصحة والسداد، وهو المستثنى من الذين يتبعهم الغاوون الذين يهيمون في كلّ واد، ويقولون ما لا يفعلون"[33].

عن أبي الحسن مولى بني نوفل: أن حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، أتيا رسول اللهﷺ، حين نزلت ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون**﴾[34] يبكيان، فقال رسول اللهﷺ، وهو يقرؤها عليهما: «﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون**﴾، حتى بلغ: ﴿**إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾[35]، قال: **أنتم**»[36]. أي: الشعراء المؤمنون، أمثال حسان وابن رواحة.

لكن إذا أمعنّا النظر في هذا الحوار الوجيز بين أبرز شعراء الإسلام وأبرز نقاد العصر؛ لاحظنا أن الرسولﷺ لم يكلف نفسه للحديث عن الجانب الفني للشعر -فهو غائب عن اهتمام الناقد اليوم تماما-؛ لغرض توجيهي أو تربوي أراد من خلاله الناقد لفت أنظار الشعراء إلى ضرورة التأليف والنظم في اتجاه يساير تعاليم الدّين، ويحذر الوقوع فيما يغضب اللهﷻ، ويوجب سخط الرسولﷺ وبالتالي النار حين السباحة عكس التيار، لذلك نستطيع القول أن النقد النبوي كان نقدا سلوكيا أو خُلقيا يراعي الشريعة كمصدر لحركاته وسكناته، أما الفني ففيه الحرية مطلقة عند رسول اللهﷺ، فلم يثبت أن الرسول قد حدد أشكال الخطاب أو حاول تغييرها أو حتى تكلم عنها، اللّهم إلاّ بعض النتف التي تدخل في تفضيل استعمال بعض الألفاظ بدل بعض، ربما يتصل بعضها بما يدخل في الشرك والكفر، أما الجوانب الأخرى كالعروض والقافية أو مناقشة اللغة الشعرية هذا لم نعثر على مثله فيما ورد عن نقد النبيﷺ للشعر، فهو كما أخبر عنه ربه أنه لم يكن له علم بالشعر وأنّى له أن يتعلم قال الله تعالى: ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لتنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين**﴾[37].

قال الإمام أحمد: «حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبيﷺ: "إن الله عزّ وجلّ قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقالﷺ: ﴿**إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل**﴾[38]، في هذا الحديث نلمس دعوة إلى نظم الشعر بل اعتبر سلاحا معنويا أقوى حتى من الأسلحة المادية، لما له-الشعر- من أثر في النفوس وعليها حينما يعرض الحقيقة في أدق العبارات وروعة الأوصاف حيث يرفع من أراد رفعه ويهوي بمن رماه بالنقص والزراية .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فتحول الشعر من الخوض في جميع أغراض الشعر المنوعة التي تناسب موضوع الشعر، إلى شعر تحكمه حدود لا يتعداها، وضوابط لا يخرج عنها انطلاقا مما جاء به الدّين السماوي الجديد، فلا مدح إلا بصدق ما في الممدوح، ولا غزل إلا ما كان عفيفا، لا يصل إلى الفحش والعهر والمجون، ولا هجاء إلا أن يكون في سبيل الغيرة على محارم الله والدفاع عن حرمة الدّين وحرمة نبيهﷺ، كما فعل ذلك حسان بن ثابت في تصديه لهجمات كفار قريش تجاه النبيِّ ﷺ، وما جاء به من تعاليم الدّين الإسلامي الحنيف، "وفي هذه الفترة فطن العرب إلى كثير من خصائص الشعر الجيّد، واهتموا بالألفاظ وجودة المعاني وطرافتها، وأصبح النقد يميل إلى التعليل بعض الشيء، إلى جانب اعتماده على السليقة والذوق العربيين، مع شيء من التعليل الذي افتقر إليه النقد في الجاهلية"[39]، وإن رأى بعض الباحثين أن النقد في عصر صدر الإسلام لا ينمو ولا يقوى بقدر ما صار عليه في العصر الأموي فيما بعد[40]. ولكن المهم أن "النقد ظلّ مستمرا في عهد البعثة الإسلامية، وأن العرب لم يكفوا عن النظر في الشعر والمفاضلة بين الشعراء (...) وظاهر أن هذا النقد لا يزال فطريا؛ فلم نجد أحدا أبان عمّا أُعجب به في الشعر، أو ذكر سببا لتفضيل شاعر"[41]على آخر.

3.2. عمر بن الخطابﷺ ونقد الشعر

يعدّ عمر بن الخطاب أكبر من ثبت عنه الاهتمام بنقد الشعر من بين الخلفاء، لذلك يرجع الكثير من الباحثين إلى تسليط الضوء على أعمال هذا الخليفة في هذا الجانب، وعمر لم يكن مجرد أمير في يده السلطة فيأمر الشعراء وينهاهم عن بعض القول، بل كان ذواقة للأدب العربي عالما بالشعر وخفاياه، إذ سجلت لنا كتب الأدب العربي قديما الكثير من المناقشات في الشعر حدثت له مع الشعراء المعاصرين له أو عن الشعراء الجاهليين، مثل شعر زهير بن أبي سلمى الذي كان يستهوي ذوق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيرا.

وقد ذكر محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد في "الطبقات"، والزبير بن بكار في "كتاب الفكاهة"، أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطابﷺ، استعمل النعمان بن عديّ بن نضلة على "ميسان"-من أرض البصرة- وكان يقول الشعر، فقال:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها... بميسان، يسقى في زجاج وحنْتم
إذا شئت غنتني دهاقينُ قرية... ورقاصةٌ تحدو على كل منسم
فإن كنتَ ندماني فبالأكبر اسقني... ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعلّ أمير المؤمنين يسوؤه... تنادُمنا بالجوسق المتهدِّم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين قال: «إي والله، إنه ليسوؤني ذلك، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته وكتب إليه، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) ﴾. أما بعد فقد بلغني قولك:

لعلّ أمير المؤمنين يسوؤه... تنادُمنا بالجوسق المتهدِّم

وأيم الله، إنه ليسوؤني وقد عزلتك »، فلما قدم على عمر بكّتَه بهذا الشعر فقال: «والله يا أمير المؤمنين، ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني»، فقال عمر: « أظن ذلك، ولكن-والله- لا تعمل لي على عمل أبدا وقد قلت ما قلت».[42]، الظاهر أن عمرﷺ قد أقال مستعمله النعمان واستبعده من منصبه، غاضبا على قوله آنفا؛ لكن، باعتبار عمر ناقد لشعر النعمان، فإنه نظر إلى مضمون الشعر إذ يحمل معنى المجون وشرب الخمر وذكر مجالس اللهو، وعمرﷺ يعلم أن عامله بعيد عن هذه المجالس وتلك الأعمال، لكن درجة المنصب والمسؤولية تقتضي أن يكون صاحبه من أهل التقى والصلاح حتى فيما يصدر من أقوالهم وليس الأعمال فقط. فتصرف عمر هو فيما تقتضيه مسؤوليته كأمير للمؤمنين بأن يفرض على عماله رقابة صارمة في كل ما يدعو إلى نقص أو شك في نزاهة الموكل له المسؤولية، ولم يرد أنّ عمر أنّب عامله هذا على شعره أن أخلّ به فنيا في جانب الصياغة أو اللغة أو المعنى، فالأبيات جميلة ورائعة ذكر الشاعر فيها وجده وصبابته ببعده عن حليلته، وذكره للشراب ليس حبا فيه وإنما تغنيا به وتتبعا لأشعار السابقين من شعراء اللّهو والمجون الذين أبدعوا في ذكر الصبابة والتشبيب بالمحبوب ووصف الوجد والألم الذي يلقاه العاشق من جراء بعد المحبوب وربما ممانعته في الوصال وغيرها، كما نجد ذلك في أشعار امرئ القيس الماجنة، وهذه سبيل مرّ عبرها الكثير من الشعراء فيما بعد حيث اجتهدوا وبرعوا في وصف الخمرة ومجالس السمر والندماء كفعل بشار وأبي نواس في خمرياته وإن كانا هذين الأخيرين قد تعاطوها وأذاعوا بحبها .

وقال بن كثير أنه لم يُذكر أنّ عمرﷺ، قد حدّ النعمان صاحب الشعر الفارط على الشراب وقد ضمنه شعره، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه ذمه ولامه على ذلك وعزله به؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لأن يمتليء جوف أحدكم قيحاً، يَريه* خير له من أن يمتلئ شعرا**»!![43]

لكن؛ يجب أن نقف قليلا عند هذا القول للنبي ﷺ في الشعر؛ ومحاولة تبيّن ما هو المقصود من الشعر الذي ينهى الحديث عنه؟؛ أهو الشعر كلّ الشعر باعتباره نسج من القول وضرب من الخطاب المستعمل لتأدية عديد الأغراض في الحياة الإنسانية؟!، أم هو الشعر الذي يتعارض وما يضعه الدِّين الإسلامي من أوامر ونواهي؟.

فيما يخص الضرب الأول فقد يزيح عنه الشّك ويؤكد بطلان الظّن به ما أثر من سماع النبيﷺ الشعر وما عرضه عليه الكثيرُ من الشعراء في زمنه من أشعار؛ مثل شاعره حسان بن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثابتﷺ وكعب بن مالك وغيرهما، بل قد كان رسول اللهﷺ، يحث شعراءه على الدفاع عنه وصدِّ هجاء المشركين تجاههﷺ، فمن ذلك ما يروى عن البراء ﷺ أن النبيﷺ قال لحسان: « **اهجُهم- أو قال: هاجِهم- وجبريل معك**»[44]

أما بالنسبة للضرب الثاني من الشعر الذي يناقض أوامر الدّين ونواهيه والذي يدعو إلى الوثنية والجاهلية وينشر التفرقة بين المسلمين ويتطاول على شريعة الله ورسوله ويسخر من عباد الله المؤمنين؛ فذاك هو الشعر الذي يعنيه الخطاب النبوي بالرفض أو بأنه أن يمتلئ جوف المرء قيحا وصديدا خير من أن يقول شعرا في هذا الاتجاه ودليله ما روي أن الرسولﷺ سمع مرة النابغة الجعدي ينشد شعرا يقول فيه:

بلغنا السماء مجدننا وجدودنا... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقالﷺ على الفور: إلى أين أبا ليلى؟، فقال النابغة: إلى الجنة يا رسول اللهﷺ، فبدا النبي وكأنه ينبهه إلى البعد عما يبدو من خلق الجاهلية في ظاهر القول كالاستعلاء والكبر، فأراد توجيه الشاعر إلى القول فيما يرضي الله وما يوافق تعاليم الدين، وإلا فذلك هو الشعر الذي يكون خيرا امتلاء جوف المرء قيحا ووسخا من قرض كلمة فيه وإن أجاد ذاك الشعر أو قصّر، وكذلك النابغة قد أحسن التخلص لما ردّ على الرسولﷺ بقوله: "إلى الجنة"[45]، فهو اليوم وأمثاله من الشعراء يدرك أن هناك الكثير من ضروب الشعر التي كان فيها نوع من الحرية في اختيارها والنسج على منوالها؛ أصبحت اليوم محظورة بفعل الشرع وما أحدثه من مفاهيم وقوانين صارت تضبط التعاملات الاجتماعية والسلوكات الفردية، وترسم حدود الحرية الفردية داخل المجتمع الإسلامي بما يضمن الحفاظ على حريات أفراد هذا المجتمع.

ويروى أن عمر قال لابن عباس: هل تروي لأشعر الشعراء؟ قال بن عباس فقلت ومن هو؟ قال عمر الذي يقول: **ولو أنّ حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد**

قلت: ذلك زهير، قال: فذاك شاعر الشعراء قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: أي عمر: لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه.[46]

يرى المرحوم طه عبد أحمد إبراهيم: أن "في نقد عمر بن الخطاب ظاهرة جديدة لا عهد لنا بها من قبل، فهو حين قدم زهيرا لم يحكم بذلك فحسب بل شرح لنا سر هذا التفضيل، لماذا يفضل عمر زهيرا ويعده أشعر العرب؟ لأنه سهل العبارة، لا تعقيد في تراكيبه، ولا حوشي في ألفاظه، ثم هو في معانيه بعيد عن الغلو، بعيد عن الإفراط في الثناء، لا يمدح الرجل إلا بما فيه، فضل زهيرا لأمور ترجع إلى الصياغة والمعاني، وأورد ما يراه من خصائص زهير فيها في شيء من التجديد، فربما كان النابغة يفضل شاعرا على آخر دون تفسير أو تعليل أو ذكر للأسباب التي مضت به إلى ذلك الحكم"[47]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والحقيقة أنه"لا أحد يشك في أن وضعية العرب بعد الإسلام هي غير وضعيتهم قبله، وهل هناك من تحول أعمق وأشمل من الانتقال من مجتمع قبلي منغلق، مجتمع بدون دولة وبدون قانون، إلى مجتمع منظم عالمي متفتح تقوده دولة تتوافر لديها كل مقومات الدولة ومن جملتها القانون المسطور؟"[48]. إذن فالتحول الذي طرأ على المجتمع العربي الجاهلي، بدءً من العصر الإسلامي الأول إلى ما بعد القرن الثامن للهجرة لم يكن سببه اختلاط العرب بغيرها من الأمم فقط، وإنما من يتفحص مراحل ذلك التحول بدقة علمية وبنظرة الباحث عن الحقيقة بالموضوعية الصافية، التي لا يتدخل فيها ميل فكري، أو تحيز ما، سيجد أن الدور الأعظم فيه كان سببه الدِّين الذي دخلت فيه شعوب شبه الجزيرة العربية فقلب مظاهر حياتها رأسا على عقب، وعلى غرار هذا القول نحن لا ننكر ما كان من جهود أو تطورات كانت قد حدثت قبل ذلك الحدث الكبير، فالكثير من الباحثين يرون أن الشعر الجاهلي منذ نشأته حتى وضعت مواضيعه في أيدي المدونين، من الراجح أنه مرَّ بمراحل تطورية تراوحت بين صعود وهبوط، ونمو وتراجع، وبداية ونضج، إذ لم ينتحل صفة الوحي أو كتاب منزل.

لكن يجب أن لا ننكر أيضا أنّ "المملكة الإسلامية، كانت تسير متنقلة في أطوارها الطبيعية، ويسلمها طور إلى طور، فتنتقل من طور تغلب فيه البداوة، إلى طور من الحضارة، ثم إلى طور آخر، وهكذا... وجاءت الدولة العباسية؛ والأمة سائرة إلى الحضارة بطبيعة ما يحيط بها من ظروف، فسارت في هذا الاتجاه، والخطأ كل الخطأ أن يُفهم أنها أوجدته من عدم!"[(49)].

إنّ الطابع العام الذي استقر عليه النقد في العصر الإسلامي الأول، لا يتطور كثيرا عمّا كان عليه في العصر الجاهلي، فقد ما زالت التأثرية تعمل عملها في التصدي لنصوص الشعر وتبدي وجهة نظرها انطلاقا من الحدث النفسي حينما تواجه الذات الإبداع، فلا يزال النقد يستلهم الذوق والشعور، ولا يزال نقدا جزئيا، فظهرت فيه فكرة الموازنة بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصر، وبين شاعرين متعاصرين، ولم يتجاوزوا الميول الشخصية في تلك الموازنات[(50)]

نتائج البحث:

-النقد العربي قديما في العصر الإسلامي لم يتطور كثيرا عمّا كان عليه في العصر الجاهلي.

-التطورات من حيث الشكل: كانت في تتبع العبارات ومراعاة المقام ودورها والسياقات التي وضعت داخلها حتى تفي بأغراض الكلام وتوصل المعنى المراد من المخاطب بثه إلى ذهن المتلقي.

-مراعاة الدّين وما جاء به من تعاليم حيث الانطلاق منه والعودة إليه حتى لا تخرج مقاصد الكلام (شعر أو نثر) عمّا جاءت به الشريعة، وتبني سلوك يضادّ الدّين .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-الزاد المعرفي لدى نقاد العصر الإسلامي يكاد لا يختلف مع ما كان عليه نقاد العصر الجاهلي، لأن أغلبهم عاش في تلك المرحلة ويحمل لغتها وثقافتها مع أنهم –نقاد صدر الإسلام- أضافوا إلى ذلك الرصيد المعرفي ما أتاهم من تعاليم الدّين الجديد فبدا عند شروعهم في الامتثال لتلك التعاليم قولا وعملا بدا بعض التباين في الخطاب النقدي العربي. تبعا لما فرضته طبيعة هذا الدّين

-الخطابان (خطاب النقد الجاهلي وخطاب النقد الإسلامي) يشتركان في كون أن كل منهما ينطلق في أحكامه على النص الأدبي مراعيا السياق الذي أنجز فيه الخطاب على تنوع مظاهره؛ كالسياق الاجتماعي الجاهلي الذي تحكمه قوانين اجتماعية خاصة.

أو السياق الاجتماعي الإسلامي الذي أصبح يحتكم إلى تعاليم الدين الذي بشر به رسول ﷺ.

-التباين الحاصل بين الخطابين هو في اختلاف مشارب سياق الخطابين الجاهلي والإسلامي، فتباينت صيغ الخطابين في ما الذي تقول أو المسموح قوله، وما لايجب أن تقول أو المحظور من القول، فذاك يتعصب للموروث الاجتماعي الصارم، وهذا يشدد الانقياد بتعاليم الدين ولا يقبل الانزياح عليها ولو قليلا.

-تقاربت لهجة الخطابين في قل ولا تقل بين عار ومشرف وبين حرام وحلال.

-نلمس طفرة طفيفة في محاولة تعليل بعض الأحكام النقدية في صدر الإسلام تظهر مع عمرﷺ في حكمه على شعر زهير بن سلمى تحسب له وتعود على نقد المرحلة بميزة مغايرة للمألوف.

مراجع البحث وإحالاته:

(1) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دت، دط.

(2) بدوي أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1996، ص395.

(3) محمد ابن عمران المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة، المطبعة السلفية، دط، 1343، ص 75.

(4) شوقي ضيف، النقد، دار المعارف، ط5، 1984، ص 26 .

(5)إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب(نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الثقافة بيروت لبنان، ط4، 1983، ص 13.

(6) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص18

(7) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط9، 1995، دار المعارف كورنيش النيل مصر، ص12.

(8) حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان- ط1، 1996، ص 112 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(9) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص 16
(10) محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد: المصطلح والنشأة والتجديد: دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2006، ص 117.
(11) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع/ القاهرة، ط7، 1998. ص 27، 28.
(12) حمادة إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف كورنيش النيل، 1982، ص53.
(13) أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع ص 16، والقول الأول لصقر خفاجة من كتابه النقد الأدبي عند اليونان، ص 17. حيث لم نحصل على الكتاب.
(14) أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة، دار العلم للملايين - بيروت-1973، ص 14.
(15) ينظر أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة، ص14.
(16) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع/ القاهرة، ط7، 1998. ص 171.
(17) أحمد مطلوب، المرجع السابق، ص14.
(18) عصام قصبجي، أصول النقد العربي القديم، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية بحلب، دط،1996، ص 6.
(19) حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان- ط1، 1996، ص 27
(20) ينظر. شوقي ضيف النقد، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1984، ص 27.
(21) مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، دط، 1998، ص 27.
(22) ينظر، مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، صص 31- 54.
(23) حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان- ط1، 1996، ص126.
(24) هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب، دار الرشيد للنشر العراق، دط، 1981، ص 34.
(25) هند حسين طه، النظرية النقدية، ص 34.
(26) سورة الشعراء، آية192-195 .
(27) سلام محمد زغلول، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، مكتبة دار الشباب، مصر، ط1، دط، ص29.
(28) هند حسين، النظرية النقدية، المرجع السابق، ص 56.
(29) أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989، ص 35.
(30) ضيف، المرجع السابق، ص 28.
(31) حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان- ط1، 1996، ص126.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(32) شوقي ضيف النقد، المرجع السابق، ص 28.

(33) محمد الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2006، ص147.

(34) سورة الشعراء، آية 224.

(35) سورة الشعراء، آية 227.

(36) أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع، المجلد العاشر ط1، 2000 ص 387.

(37) سورة يس آية 69. 70 .

(38) أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع، المجلد العاشر ط1، 2000 ص 388.

(39) هند حسين، النظرية المرجع السابق، ص 42.

(40) ينظر. ضيف، النقد، المرجع السابق، ص 29.

(41) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دط، دت، ص33.

(42) أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع، المجلد العاشر ط1، 2000 ص 386.

* قال لأصمعي: يريه من الوري بوزن الرمي . قال أبو عبيدة: الوري هو أن يأكل القيح جوفه، (ينظر محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تح محب الدين الخطيب، ج4، المكتبة السلفية- القاهرة- ط1، 1400هـ، حديث رقم (6155) ص 120 والشرح في الهامش).

(43) ينظر. أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع، المجلد العاشر ط1، 2000 ص 386. والحديث موجود في الجامع الصحيح للبخاري برقم(6154) والحديث الذي يليه .

(44) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تح محب الدين الخطيب، ج4، المكتبة السلفية- القاهرة- ط1، 1400هـ، حديث رقم (6153) ص 120.

(45) ينظر. مصطفى عبد الرحمان، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص 72.

(46) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه إبراهيم، ص 34.

(47) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي، ص 34.

(48) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط10، 2009، ص 58.

(49) أمين أحمد، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، د ت، ج1، ص 21.

(50) ينظر. ضيف، النقد، المرجع السابق، ص 37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com